الأسوة الحسنة في القرآن الكريم
وتطبيقها في السيرة النبوية

الدكتور عماد الدين الرشيد
قسم علوم القرآن والحديث
كلية الشريعة
جامعة دمشق

الملخص

يتناول البحث مصطلح الأسوة الحسنة في القرآن الكريم، من خلال عرض المواضع التي ورد فيها ذكر الأسوة الحسنة، ومن خلال السياق الذي وردت فيه. ثم سيطبق الباحث ما توصل إليه في مفهوم الأسوة الحسنة على سيرة النبي محمد.

لذا فإن الباحث لن يتناول التفصيلات التشريعية، ولا الأحكام الفقهية في النصوص التي سيدرسها.

وللوصول إلى الغاية المرجوة من البحث فقد قُسِّمَ إلى الموضوعات الآتية:

1. ضرورة الأسوة الحسنة.
2. مفهوم الأسوة في القرآن الكريم.
3. صفات الأسوة الحسنة.
4. المخاطبون بالأسوة الحسنة.
5. حقيقة الاقتداء بالأسوة الحسنة.

6. علاقة الأسوة الحسنة بسيرة الرسول r .

7. جوانب الأسوة بالنبي r .

أ. الأسوة بالنبي r من ناحية المنهج.

ب. الأسوة بالنبي r من ناحية العبادة.

ت. الأسوة بالنبي r من ناحية الأحوال.

وحرصاً على موضوعية البحث ودقته فقد اتبع الباحث الاستقراء أساساً لمعرفة المواضع التي ورد فيها ذكر الأسوة الحسنة في القرآن الكريم، كما اتبع المنهج التحليلي في دراسة السياقات التي وردت فيها النصوص، وفي دراسة الشروح المنقولة عن المفسرين، وشفع ذلك بمقارنة أقوال المفسرين بعضها مع بعض حيث يلزم الأمر .

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه..

يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

المبحث التمهيدي:

مدخل:

يأتي هذا البحث في غمرة الأحداث المعاصرة التي تحوم حول هذه الأمة في زمانٍ اشتد فيه الخناق عليها بعد أن أفلست معظم نظم الأرض، ولم تستطع أن تقيم للناس لا عدالة، ولا حرية، ولا مساواة على كثرة الشعارات المطروحة، وعلى جفافٍ في المضمون. هنا تبرز أهمية بناء هذا الدين، وقدرته على قيادة الحياة بعد أن كَبَتْ أطراف الحضارة التي كانت تتخيلها الأمة الغربية..

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهيئ للأمة الإسلامية قادة وعلماء يستطيعون أن يقدموا الإسلام كما أراده الله سبحانه وتعالى، وكما أنزله على نبيه المصطفى r صالحاً لقيادة الحياة، صالحاً لقيادة المجتمع نحو الخير والفلاح.

أهمية البحث ومنهجه:

تظهر أهمية الموضوع من الناحية النظرية في كونه دراسة موضوعية في القرآن الكريم، تطبق على السيرة النبوية، فهي تجمع بين علمين مهمين من علوم الشريعة من جهة، وتبرز علوم الشريعة على أنها وحدة متكاملة، فتسهم في إزالة تصور أن بين علوم الشريعة حواجزَ تجعل منها علوماً مختلفة كلياً، كأنها تنتمي إلى حقول معرفية متباينة، فتأتي هذا الدراسة وأمثالها لتؤكد حقيقة أن كل علوم الشريعة قد صدرت عن النص الشرعي، وما هي إلا شروح علمية له، ورؤى تفسيرية يجتهد العلماء فيها ضمن ضوابط وقواعد متخصصة.

وأمَّا من الناحية العملية فتكمن أهمية الموضوع في ارتباطه بالتربية، ولاتخفى أهمية التربية من خلال حجم الشريحة المخاطبة بها، مع أنها عملية متواصلة من المهد إلى اللحد، فكل واحد من البشر يفتقر إلى التربية إلى أن يموت. ففي سورية مثلاً ثمة أجيال في مراحل معينة هم في أمس الحاجة إلى التربية، كمن هم دون العشرين من العمر الذين يمثلون أكثر من 50% من المجتمع السوري، كما

يبيّن الجدول الآتي[1]:

العام	العدد بالملايين	النسبة المئوية من السكان
1981	5,404	59.74%
1994	7,774	56.41%
2004	9,168	51.16%

فكل ما يتعلق بالتربية، ويحاكي هذه الشريحة يحاكي أكثر من نصف المجتمع السوري، وليس الأمر كذلك في سورية فحسب بل في العالم الإسلامي عموماً[2].

إن اتساع الجمهور الذي تخاطبه التربية حسبما تشير الإحصائية الرسمية يتطلب من الجهات المعنية بشؤون التربية (المؤسسات التربوية، التعليمية، الإعلامية، المساجد، مؤسسة الأسرة، المدارس...) أن تولي العمل التربوي ما تستطيع من العناية.

إنه موضوعٌ يرتبط بزراعة المستقبل، يرتبط بغرس شتائل اليوم إلى الغد، والمستقبل قد لا نملكه، لكننا نملك أدواته، وأهم أدوات المستقبل وسائل التربية الفاعلة، والرؤية التربوية الصحيحة.

والقرآن الكريم يمثل لهذه الأمة الرؤية المرجعية التي تتفجر منها رؤى الأمة في مجالات التربية والاقتصاد والسياسة والاجتماع وكل مناحي الحياة، لذلك سنبدأ من القرآن الكريم في تحديد مفهوم القدوة الحسنة، وبعد أن ندرس هذا المفهوم في الفضاء القرآني دراسة موضوعية متكاملة، سنسقط ما توصلنا إليه من الرؤية القرآنية على واقع السيرة النبوية.

فالبحث يتكون من جزأين :

1- أن نعرض لمفهوم الأسوة في القرآن الكريم عرضاً موضوعياً.

2- أن نطبق هذا العرض النظري على السيرة النبوية، فنرى أثر السيرة في مفهوم الأسوة، ونرى تطبيقات الأسوة من خلال السيرة المطهرة.

ووصولاً إلى الهدف المنشود سيتبع الباحث المنهج الاستقرائي في تقصي مواطن المصطلح المدروس في القرآن الكريم، وكذلك في معرفة آراء المفسرين فيما يتعلق بالنصوص المرتبطة به، وفي تحديد النماذج المختارة من السيرة النبوية. كما أن الباحث سيتبع المنهج التحليلي في دراسة النصوص

---

1 انظر المجموعة الإحصائية للعام 2006، الصادرة عن المكتب المركزي للإحصاء، رئاسة مجلس الوزراء في سورية (65).

2 انظر على سبيل المثال: Human Development Report 2007/2008, First Published, 2007, Palgrave Macmillan, New York. (243-246).

القرآنية الواردة، وسيأخذ بالمنهج المقارن فيعرض آراء المفسرين مقارنة حيث يلزم.

ضرورة الأسوة الحسنة:

قبل الدخول في عمق الموضوع لابد أن نعرض لموقع الأسوة الحسنة في النفس البشرية، بمعنى حاجة الإنسان إلى هذا المفهوم، ومدى ارتباطه بما يحقق له القدوة. ويمكن أن يوضح هذا الموقعَ أمورٌ:

الأول: أن الحاجة إلى الأسوة الحسنة من الضرورات الفطرية للبشر، فالإنسان يحتاج إلى النموذج، وفق ما هو معروف بوسائل التربية بـ "التربية بالنموذج"، وتكمن وراء هذه الحاجة ما جُبِل عليه الناس من حب الكمال[1]؛ فالبشر مجبولون على هذا الحب، حتى إن كل ما لديهم من سلوك يسعى لأن يحاكي الكمال.

ومن الكمال أن يصبحوا بلا أخطاء، وأن يعيشوا فلا يموتون، ومن خلال هذا التوجه الفطري في النفس البشرية دخل إبليس على أبوينا في الجنة، قال تعالى مبيناً ذلك: [فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ] الأعراف:20، فحرك إبليس فيهما قضيتين مهمتين من عناصر الكمال:

1- عدم الخطأ.. وهو مأخوذ من قوله: [إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ]، أي ملكين منزهين.

2- الخلود وعدم الموت، وهذا من الكمال.

فوجود فطرة حب الكمال في الإنسان أثمر الحاجة إلى النموذج، وإلى القدوة؛ لأن القدوة حالة مثالية، تعبر عن الكمال، وهي من هذا الجانب تحاكي الفطرة الإنسانية.

الثاني: أن البشر في حاجة إلى من يعلمهم السلوك الأمثل؛ لأن الإنسان مفتقر إلى من يعلمه الصواب، بغض النظر عن كون ذلك يستجيب لداعي الفطرة في النفس الإنسانية.

قال الرازي في تفسيره[2]: (قال أبو عبد الله الحليمي وجه الانتفاع ببعثة الرسل ليس إلا في طريق الدين، وهو من وجوه الأول- يعني قولاً سابقاً كان يناقشه- أن الخلق جبلوا على النقصان وقلة الفهم وعدم الدراية).

---

1 انظر روح المعاني (99/8).

2 تفسير الرازي (64/9).

ولذلك أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب من أجل هذا المعنى، قال تعالى : [لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ] الحديد:25، فأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب من أجل أن يتعلم البشر السلوك الأمثل، فيقوموا بالقسط والعدل، ولاريب في أن العدل من أعلى مقاصد الشريعة.

وهذا النص يبيّن أن الرسل والكتب لم تكن إلا من أجل أن يقام العدل، والعدل يمثل واحدة من أعلى درجات الكمال في الأرض.

الثالث: يتعلق بالحساب يوم القيامة، فمن أجل تمام أن تقوم حجة الله على البشر لابد من تقديم نموذج إليهم، الأمر الذي يستدعي أن تقدم القدوة الحسنة المتمثلة بالأشخاص، والمتمثلة بالفكر، إذ لو افتقد الناس هذا النموذج قد يحتجون على الله، بزعمهم عدم معرفة النموذج أو ما يدل على السلوك الصحيح[1]، لذلك قال الله تعالى: [رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً] النساء:165. فحتى لا تكون أية ذريعة للبشر على الله قدم لهم النموذج، فالحاجة إلى الأسوة الحسنة من خلال هذه التوطئة تتجلى في مفردات ثلاث، هي:

1. **حب الكمال لدى البشر.**
2. **ضرورة أن يتعلم البشر السلوك الأمثل.**
3. **إقامة الحجة على البشر في تقديم النموذج الكامل لهم.**

المبحث الأول: الأسوة في القرآن الكريم، وفيه مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الأسوة في القرآن الكريم:

من المناسب قبل تناول مفهوم الأسوة في القرآن الكريم أن نتعرض له في اللغة، بالعودة إلى المعاجم نجد أن الأسوة تطلق ويراد بها القدوة[2]، وقال في الكليات: (الأسوة الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره)[3].

---

1 انظر الكشاف (422/3)، التسهيل لعلوم التنزيل (164/1).

2 لسان العرب جذر (رسا)، (35/14).

3 الكليات (114/1).

وأمَّا في القرآن الكريم فقد جاء لفظ "الأسوة الحسنة" في سياقين؛ في سياق الحديث عن رسول الله r، وفي سياق الحديث عن سيدنا إبراهيم u .

1. أما ما يتعلق بالحديث عن رسولنا r فهي قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً] الأحزاب:21.

2. أما ما يتعلق بقصة سيدنا إبراهيم u فقد جاء في موضعين في ذات السياق:

أ. قوله تعالى: [قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ]الممتحنة:4.

ب. قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ] الممتحنة:6.

إذاً أشار القرآن الكريم إلى قضية الأسوة في سياقين في مواضع ثلاثة، وأضاف إليها لفظ "الحسنة" في المواضع الثلاثة، فذكر الأسوة، ووصفها بالحسن فما المقصود بالأسوة الحسنة؟!

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال لا بد من بيان أن السياقين القرآنيين قد ذكرا مع الأسوة الحسنة الجهة المدعوة للاقتداء بهذه الأسوة، وبعبارة أخرى: من هم المخاطبون بالأسوة الحسنة؟، فقد ذكر النصان الأسوة الحسنة وذكرا معها [لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ]، وحتى يتكامل تصورنا لمفهوم الأسوة في القرآن الكريم سندرس صفات الأسوة الحسنة، كما سندرس المخاطبين بالأسوة الحسنة وصفاتهم.

توجه المفسرون في الجواب عن السؤال السابق إلى مسلكين:

الأول: يرى أن الأسوة في أقوال الذي يُقْتَدَىْ به، وأفعاله وأحواله. فالأسوة إنَّما هي صفةٌ في شخص، وهي صفات الكمال التي تصلح أن تكون محل اقتداءٍ من الآخرين، وإلى هذا القول ذهب ابن الجوزي، والقرطبي، والألوسي، والشوكاني، وغيرهم من المفسرين[1].

1 زاد المسير (367/6)، تفسير القرطبي (155/14)، روح المعاني (167/21)، تفسير أبي السعود (97/7)، فتح القدير (270/4).

الثاني: يرى أن الأسوة هو الشخص صاحب هذه الأقوال والأفعال، قال تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ] فهو الأسوة. وهذا التفسير ذكره أبو حيان المفسر والألوسي أيضاً[1].

وهذا التوجه يختلف عن سابقه من ناحية أن "الأسوة" في القول السابق هي سلوك من يقتدى به قولاً وفعلاً، في حين تطلق "الأسوة" في هذا القول على الرجل نفسه.

والمآل واحد بالتأكيد، لأن المقصود من الأسوة ليس ذات المقتدى به، لا دمه، ولا لحمه!! بل سلوكه وأفعاله في النهاية. ولا مشاحة بعد ذلك في إطلاق التسمية على الشخص أو على سلوكه. ولا مانع من أن يكون معنى الأسوة الأمرين معاً، فيسمى الرجلُ نفسُه أسوةً، ويسمى فعلُه أسوةً أيضاً.

ولو رجعنا إلى المواضع التي ورد فيها ذكر الأسوة الحسنة في القرآن الكريم لوجدنا أنها تقدم للقدوة أنبياء - النبي محمد r، والنبي إبراهيم u - وأتباعاً لهم، وهذا ما يرسم الدائرة التي ينبغي أن تدور حولها الأسوة الحسنة، ألا وهي أن تستنير بهدي الوحي الذي تستمد منه النبوة معناها، وبه تستقيم الحياة، قال تعالى: [إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ] الإسراء: 9.

وبناءً على ذلك يمكن أن نقول إن المراد بالأسوة الحسنة التي ذكرها القرآن في سيدنا محمد r، وفي [إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ] هم أتباع الوحي من الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين[2]، ومحل الاقتداء هو سلوكهم القائم أساساً على الوحي، ويدل على ذلك أن الآية لما ذكرت الأسوة الحسنة في إبراهيم والذين معه بينت مجال الأسوة، فقال تعالى: [إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ]، فذكرُ براءتهم من المشركين وممانعتهم من الانزلاق في مهاوي الكفر هو تصريح، أو على الأقل بمنزلة التصريح بأن محل الأسوة بإبراهيم والذين معه هو سلوكهم الموافق للوحي.

المطلب الثاني: صفات الأسوة الحسنة:

ثمة سؤال يرد عند قراءة المواضع التي ورد فيها ذكر "الأسوة الحسنة" وهو:

بمَ استحق النبي r أن يكون أسوةً حسنة؟ وكيف أصبح إبراهيم، والذين آمنوا معه أسوةً حسنة؟

---

1 البحر المحيط (216/7)، روح المعاني في الموضع السابق وفي (69/28)، وقد أورد الزمخشري القولين من غير ترجيح في الكشاف (539/3).

2 روح المعاني (71/28)، واختار الطبري في تفسيره (62/28) أن المقصود بالذين معه هم الأنبياء الذين معه – أي في زمانه كما ذكر الآلوسي في روح المعاني في الموضع السابق-.

تبرز أهمية هذا السؤال من ناحية أن الإجابة عنه توصل إلى جملة من الأوصاف في الأسوة الحسنة التي ذكرها القرآن الكريم، يمكن أن تتمثلها الأمة لتكون هي بذاتها سلوكاً مرجعياً للأمة كلها، ولنقل استمراراً للأسوة الحسنة وبعثاً لها كلما خبت مظاهرها في الأمة.

ولكي نتوصل إلى إجابة دقيقة عن هذا السؤال ينبغي أن نعود إلى المواطن التي ذكر فيها القرآنُ الكريمُ جوانبَ من السلوك الذي يُقتدى فيه بالنبي r، أو بغيره من الأُسوات، أو طلب من النبي r أن يأتسي به. وما ينبغي أن يغيب عنا أننا نعني بالقدوة الشخصَ وأفعاله؛ لأنه لن يكون قدوة بذاته بل بالصفات التي يتحلى بها.

ذكر القرآن للنبي r في هذا المجال نصوصاً عدة، نختار منها:

- قوله تعالى: [وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ] سورة ص(17_20)، فاصبر كما صبرت هذه الأسوة، ووصف هذه القدوة بقوله: [آتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ]، فما هي الحكمة؟!

ونلاحظ أنه قدم الحكمة على فصل الخطاب؛ لأن فصل الخطاب نوع من المهارات الكسبية، ولكن الحكمة هبة من الله U، والحكمة هي النبوة كما ذكر الطبري، والقرطبي، والشوكاني[1].

فالحكمة هي الوحي، لذلك فإن الأسوة إنَّما هي في اتصالها بالوحي سواء كانت نبياً مرسلاً كنبينا محمد r، وكسيدنا إبراهيم u، أو كانت من أتباع الرسل، والذين آمنوا معهم لأنهم التصقوا بالوحي، فالوحي هو أهم أسس القدوة الحسنة سواءٌ كان في النزول على الرجل، أو في تبنيه سلوكاً ومنهجاً؛ لأن الوحي يمثل للبشر المصدر العلمي الكاشف الذي يضاف إلى مصدر التجربة، فتتكامل المعرفة البشرية عندما يتتحق لدينا المنهج التجريبي -منهج الحس والمشاهدة- مع منهج الوحي - القائم على الغيب- فيتآزر هذا مع ذاك، ويكشف للبشرية حقائق كثيرة فتنمو المعرفة، ويزداد العلم، وإذا تم الاكتفاء بالاتصال القائم على الحس والمشاهدة فحسب، فلن تكون المعرفة كاملة.

ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى الوحي لأنّا نؤمن بالله، وأهل الحس والمشاهدة من العلماء التجريبيين يؤمنون بوجود الله، والإيمان بوجود الله لا ينتهي عند مجرد التصديق، بل لابد من التواصل مع الله سبحانه وتعالى، ولن يتم ذلك إلا من خلال الوحي، فخاطبنا الله بالوحي فتكاملت

---

1 تفسير الطبري (139/23)، تفسير القرطبي (162/15)، فتح القدير (425/4).

مصادر المعرفة علماً تجريبياً مع العلم الغيبي، العلم الغيبي القائم على الرسالة الإلهية، وليس على الخزعبلات والأساطير؛ لذلك نقول إن أهم صفات القدوة أن يكون متواصلاً مع عالم الغيب وهو الوحي.

وثمة رأي ذكره الرازي: هو أن المقصود بالحكمة كل ما ينبغي علماً وعملاً[1]، وهذا هو المعنى الأعم للعلم الذي يشمل عالم الغيب وعالم الشهادة. وهذا كلام جميل جداً، فمن أهم صفات القدوة بناءً على ذلك العلم والاتصال بالوحي، قال تعالى: [وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ] القصص:14، ههنا تذكر الآية العلم والحُكم، وهو الحكمة، فلابد أن يكون الأسوة على علم، وتواصل مع الله، ولست أقول التواصل مع الله هو مجرد الرياضة الروحية، وإنّما التواصل مع الوحي بأن يصبح له دستوراً، وشريعة، ومنهجاً تفكيرياً، فيأخذ منه التصور، ويأخذ منه الرؤية الشاملة.

لاشك في أن التزاوج سيكون صحيحاً مابين العلم التجريبي والوحي؛ لأن الوحي من عند الله، ولأن العلم التجريبي قانونٌ سنَّهُ الله فلا يتعارض ما أتى من عند الله مع ما سنه الله سبحانه وتعالى، لذلك نؤمن إيماناً جازماً بأن الغيب، والشهادة لا يتعارضان في عقيدتنا؛ ومن هنا لا يمكن أن تكون الأسوة الحسنة بعيدة عن هذا المفهوم.

- قال تعالى: [قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ]، يبين هذا النص أن الأسوة تستحق مكانة الاقتداء بمواقف تصدر عنها ترفعها إلى درجة الأسوة، وفي هذا المشهد القرآني نجد ثورة هؤلاء الربانيين الممزوجين بمعارف الوحي، التي منحتهم قواعد التفكير الصحيح عندما كان إبراهيم يبين لهم أنه لا يمكن أن يكون النجم رباً، ولا القمر رباً، ولا الشمس رباً، ثم صرفهم إلى الله رب العالمين. هذا هو التفكير الصحيح الذي يكتسبه الإنسان من الوحي، وهؤلاء هم الممزوجون بالعلم.. وبالوحي.. وبالحكمة.. وبالمعرفة ثاروا على فكرٍ أرضي متخلف كان يعتقده قومهم المشركون فثاروا على هذا التفكير، قال تعالى: [إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ] هذا الموقف المبدئي هو موقف أهل التوحيد من الوثنية، موقفهم من احتقار العقل، ومن احتقار العلم، ومن مصادمة معارف الوحي التي تتعارض كلياً مع مفاهيم الوثنية. لقد جاء الإسلام ثورةً على الوثنية.. والشرك.. والجاهلية؛ لأنه لا يرضى أبداً لهذا المخلوق الذي كُرم بأهم صفة وهي صفة العلم والعقل أن يتخلى عن هذه الصفة.

1 التفسير الكبير (166/26)، ونقل الشوكاني في فتح القدير (425/4) عن مقاتل أن الحكمة هي الفهم والعلم.

يدل هذا النص على أن من أهم صفات الأسوة أن يكون لصاحب الأسوة مواقف مرجعية؛ لأن الموقف في حقيقة الأمر هو الذي يصنع، ويصقل صاحب الأسوة، ويمنحه مكانة الاقتداء.

وهنا يقترب البحث في القدوة الحسنة من المرجعية[1]، إذ يتشابه المفهومان كثيراً، من ناحية كون سلوكهما محل قدوة، ويختلفان في كون الشخصية المرجعية تزيد على شخصية الأسوة في عودة الناس إليها في كل ما ينزل بها، بخلاف شخصية الأسوة التي لا يشترط أن تحكِّمها الأمة في كل قضاياها. ويمكن القول إن كل شخصية مرجعية هي أسوة، ولا يشترط في الأسوة أن تكون شخصية مرجعية.

إذاً صفة الموقف في الأسوة في غاية الأهمية، فأتباع إبراهيم u ثاروا فكرياً، واجتماعياً، وحتى سياسياً على الملوك الذين تتمثل فيهم هذه الوثنية، كالنمرود. قال تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] البقرة258، إذاً هي ثورة على تقاليد البشر ومفاهيمهم التي تصطدم مع الوحي.

وهكذا نجد أن أهم ما ينبغي أن تتصف به الأسوة الحسنة صفتان، هما:

1. العلم، والالتصاق بالوحي.
2. أن يكون الأسوة صاحب مواقف.

المطلب الثالث: المخاطبون بالأسوة الحسنة:

تخاطب الأسوة الحسنة فريقاً من الناس ذكرهم قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً]، تبين هذه الآية أن الفريق المخاطب بالأسوةالحسنة هم: من كان يرجو الله، واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً، وهذا ما أكدته آية الأسوة بإبراهيم u ومن معه، فقال تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ].

ويمكن مما سبق أن نحدد للمخاطب بالأسوة الحسنة صفتين، هما:

1 للتوسع في مفهوم المرجعية ينظر المرجعية دراسة في المفهوم القرآني د عماد الدين الرشيد (31 فما بعد).

1. من كان يرجو الله واليوم الآخر، والرجاء هنا يأتي بمعنيين، الخوف أوالأمل[1].

والمقصود أنه يرجو ثواب الله ورحمته ولقاءه[2]، وقال بعض المفسرين أنه يخشى الله ويخشى البعث [3]، وثم قول آخر وهو أنه يؤمن بالله والمعاد[4].

2. ذكر الله كثيراً، أي من كانت له طاعات كثيرة[5]؛ لأن من ثابرعلى ذكر الله لازم طاعته[6].

فالأسوة الحسنة تحاكي جمهوراً معيناً، وفريقاً محدداً، هم الذين يـذكرون الله، والـذين يرجـون الله ويخافونه، ويعدون العدة ليوم الحساب والبعث، يوم القيامة.

هذه الشريحة هي التي تفيد من الأسوة الحسنة؛ لأن الأسوة تُصْلِحُ لها حياتها، بل تحييها من خـلال الوحي الذي تصطبغ به سلوكاً ومنهجاً. والوحي إنَّما جاء ليكون حياة، قال تعالى: [يَا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ] (الأنفال:24)، وما دام هذا الفريق ممن يذكر الله ذكراً كثيراً، فسيكون مطمئناً، قال الله تعالى: [الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِـذِكْرِ اللّـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ]الرعد:28، فالقلوب المطمئنة هي التي تستجيب لهذا المعنى، وهي التي تنفعها أسـوة إبراهيم u والذي وصفه البيان القرآني بقوله تعالى: [إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ]الرعـد: 84، كمـا تنفعها أسوة النبي محمد r، أما إذا فرغت القلوب من هذه المعاني، فلا تـنفعهم الأسـوة الحـسنة، وأقصى استجاباتهم للأسوة الحسنة أن ينظروا إلى أشخاصها أبطالاً وعباقرة – إن هم فعلوا – مـن غير أن ينظروا إلى أفعالهم. وربما إذا نظروا فإنما ينظرون من زوايا ميتة، كما قال تعالى عن قـوم نوح: [قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ]الشعراء111، فالقوم نظروا إلى الرتبة الاجتماعيـة، فلـم يقنعهم إيمان هؤلاء المستضعفين، ولكن القدر الإلهي كان يخبئ لهم أن جعل ذريتهم هـم البـاقين. فليست قيمة الفكرة من الذين يناصرونها، ضعفاء كانوا أم أقوياء، إن قوة الفكرة ذاتية، وأما الذين لا يحيون إلا من خلال المصالح فلا ينظرون إلا من خلال زاوية المصلحة. أمَّا أتبـاع الـوحي فـإنهم ينظرون إلى الأمر بمقدار موافقته شرع الله U؛ لأنهم يؤمنون مطلق الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى لا يريد بعباده إلا الخير، وهو أعلم بهم، قال تعالى: [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ]الملك14،

---

1 الكشاف (539/3)، تفسير البيضاوي (369/4).

2 تفسير الطبري (143/21)، تفسير أبي السعود (97/7)، فتح القدير (271/4).

3 زاد المسير (367/6).

4 تفسير ابن كثير (349/4).

5 الكشاف (539/3).

6 تفسير أبي السعود (97/7).

وقال أيضاً: [أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ]المائدة50

وثمة رأي للمفسرين يرى أن المقصود بالأسوة كل المؤمنين وما ورد من قوله تعالى: [لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ]، فإنما هو لتحريض المؤمنين وإثارة الإيمان فيهم، قال ابن كثير: (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد)[1]. وهذا ما ذهب إليه الآلوسي أيضاً[2].

والذي يبدو والله أعلم أن المخاطب على وجه الخصوص بالأسوة الحسنة هم من ذكرتهم الآية بوصف: [مَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً]، على أنه لايمتنع أن يكون النص عاماً يخاطب المسلمين جميعاً، ويكون تخصيص من ذكرتهم الآية بالذكر لبيان الفريق الذي يستجيب لداعي الأسوة. وقد يفهم ما ذهبنا إليه من قول الطبري رحمه الله: (لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في الذين ذكرهم، إبراهيم والذين معه من الأنبياء صلوات الله عليهم والرسل، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، يقول، لمن كان منكم يرجو لقاء الله وثواب الله والنجاة في اليوم الآخر)[3].

هذا ولا بد من بيان أمر مهم وهو أن الآية في الأصل كانت تخاطب المنافقين الذين تخلفوا عن النبيr يوم الأحزاب. قال الطبري: (وهذا عتاب من الله للمتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعسكره بالمدينة من المؤمنين به، يقول لهم جل ثناؤه: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة أن تتأسوا به وتكونوا معه حيث كان ولا تتخلفوا عنه، لمن كان يرجو الله، يقول: فإن من يرجو ثواب الله ورحمته في الآخرة لا يرغب بنفسه، ولكنه تكون له به أسوة في أن يكون معه حيث يكون هو)[4]. وقد قال بمثل ذلك كل من القرطبي والشوكاني[5].

والسياق متصل في الموضوع نفسه من قوله تعالى: [وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا] الأحزاب:12، في اثنتي عشرة آية إلى قوله تعالى[6]: [لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا] الأحزاب:24.

ولكن دراستنا في هذا المبحث لا تتناول من نزلت الآية بسببه، إذ من المعلوم أن سبب النزول لايخرج

1 تفسير ابن كثير (349/4).
2 روح المعاني (167/21).
3 تفسير الطبري (64/28).
4 تفسير الطبري (143/21).
5 القرطبي (155/14)، فتح القدير (271/4).
6 وقد ذكر وحدة السياق من علماء السيرة ابن إسحاق رحمه الله، انظر السيرة النبوية (306/4-308).

من النص إجماعاً[1]، وإنما بحثنا فيمن يدخل زيادة على سبب النزول، وهذا ما ينبغي ألا يغيب عنا في هذا المبحث.

المطلب الرابع: حقيقة الاقتداء بالأسوة الحسنة:

بعد أن عرفنا معنى الأسوة الحسنة، وصفات أصحابها، والمخاطبين بها، بعد ذلك يرد تساؤل عن حقيقة التأسي، وكيف يكون الرجل متأسياً؟.. كيف يكون مستجيباً لأمر الله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ]؟.. ولاشك في أنه أمر وإن جاء في صيغة الخبر.

لو رجعنا إلى قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً، وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً] الأحزاب: 21-22. فسنجد أن هذا السياق القرآني يبين لنا بوضوح حقيقة الاقتداء بالأسوة الحسنة، من خلال أمرين:

- فأول ذلك التصديق بما جاء عن الله، ورسوله، فيصدق الله U فيما جاء من الوحي عنه، ويصدق النبي r فيما جاء من الأثر الثابت عنه r. وهذا المعنى هو تعبير آخر عن الإيمان بالوحي، فإن تصديق الله ورسوله ما هو إلا ممارسة حقيقية للإيمان بالغيب، فمن لم يؤمن بالغيب لن يصدق الله ورسوله، وإن تسمى بأسماء المسلمين، فهذا شكل من الإيمان الصوري، أو لنقل الدبلوماسي، وليس هو ما نعنيه أو تتحدث عنه الآية.
- والوصف الثاني من حقيقة التأسي التسليم لأمر الله، قال تعالى: [وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً] الأحزاب22، وهاهنا يذكر البيان الإلهي معنى جديداً للتأسي وهو التسليم، فالمعنى الأول التصديق الاعتقادي، والثاني –التسليم- هو الجانب السلوكي للإيمان، فما زادهم إلا تصديقاً اعتقادياً بما جاء عن الله U ثم اتباعاً وتسليماً، لأمره وقدره سبحانه وتعالى[2]، وطاعة لرسوله r [3].

إن الاستسلام لأمر الله هو الإسلام، وهو حالة عملية، والإيمان حالة اعتقادية، ومن خلال هذا النص نجد أن التأسي لن يكون إلا بتضافر الإيمان مع الإسلام، وبعبارة أدق بتفعيل كل من الإيمان والإسلام،

1 الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (91/1).

2 الكشاف (539/3)، تفسير أبي السعود (99/7).

3 تفسير ابن كثير (476/3).

بعيداً عن دعوى ذلك العرية عن أي دليل.

وقد ورد نظير ذلك في قوله تعالى: [فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً] النساء:65. وهذا التأكيد من البيان الإلهي على سلامة النفس والرضا بأمر الله والتسليم لحكمه ليبين أهمية الجانب القلبي، وضرورة الصدق فيه، وتضافره مع الخضوع لحكم الله U، وإلا لم يكتمل الإيمان[1]، وكان الانتماء إلى الإسلام ترفاً فكرياً، أو انتمـاءً قومياً. ولا يقبل أبداً أن يتحول انتماء المسلمين إلى الإسلام إلى انتماء قومي، أو أن يتحول الدين إلى قومية جديدة. نعم قد يقبل ذلك من غير المسلمين الذين يحيون في الدولة المسلمة؛ لأن انتماءهم إلى الإسلام انتساب حضاري وثقافي، وليس انتساباً دينياً[2].

المبحث الثاني: علاقة الأسوة بالسيرة النبوية، وفيه مطالب:

المطلب الأول: نشأة علم السيرة :

ليس من مفردات البحث أن يستعرض بالتفصيل نشأة السيرة، وكيف صارت السيرة علماً، فإن لهـذا البحث دراساته المختصة المعمقة.

لكن قد يثري البحث أن نذكر قبل بيان العلاقة مابين الأسوة الحسنة والسيرة النبوية بعـض الأفكـار المختصرة في نشأة علم السيرة، فنقول:

إن علم السيرة علم قديم، وأول من أصَّله الإمام الزهري رحمه الله[3]، فجمع في ذلك جملة أحاديـث[4]، ثم نضج هذا العلم على يد تلميذه محمد بن إسحق بن يسار المطلبي المتوفى سنة إحـدى وخمـسين ومئة للهجرة[5]. وهكذا نشأت السيرة نشأة مبكرة مع الحديث النبوي ثم تطور علم السيرة، وأصبح له مصنفات ورموز وأعلام، كان منهم الواقدي المتوفى في بداية المئة الثالثة للهجرة[6]، وكان منهم ابن

---

1 التفسير الكبير (131/10).

2 مما يؤسف حقاً أن الكثير من المسلمين بعد حوادث أيلول "سبتمبر" 2001م تحولوا إلى الإسلام القومي، ولـيس إلـى الإسـلام الديني!! صحيح أن الانتماء للإسلام يهمهم، ويتأثرون إذا اعتدي على الإسلام، لكن ليس سلوكهم يوافق الشريعة، وليسوا مستعدين لأن يكونوا مسلمين سلوكاً، وهذا يؤسف جداً، فالأسوة كما بينت إنما هي تفاعل بين حالتي الاعتقاد والسلوك.

3 انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (395/9).

4 انظر السيرة الحلبية (3/1).

5 انظر ترجمته في الروض الأنف للسهلي (19/1).

6 انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (323/9).

هشام الذي يحسب على مدرسة ابن اسحق المتوفى سنة ثلاث عشرة ومئتين للهجرة[1]. ثم تطور هذا العلم أكثر، وصارت له مصنفات أكثر شهرة، ومدارس علمية متعددة.

وعلى الرغم من استقلال علم السيرة عن علوم الحديث والرواية فلا تزال مفردات كثيرة من السيرة ممزوجة بكتب الحديث[2]، الأمر الذي يبيح لي العودة إلى كتب الحديث حين أستعرض بعض صور الأسوة بالنبي r في المباحث القادمة، وما أرى أن ذلك يخل بالمنهجية العلمية للبحث.

المطلب الثاني: علاقة الأسوة الحسنة بسيرة الرسول r:

إن علم السيرة: هو العلم الذي يرصد ما نقل عن رسول الله r من أحداث حياته، فيدخل فيها ما يتعلق به r في وصفه نبياً مبلغاً عن الله U، وفي وصفه قاضياً، وفي وصفه صاحب منهج، وقائد دولة، وفي وصفه أباً، وزوجاً، وجاراً، ويدخل فيها كل ما يرتبط بحياته r في سلمه، وفي حربه. كل هذا يدخل في علم السيرة.

ولكي نستبين علاقة الأسوة الحسنة بعلم السيرة نعود في القرآن الكريم إلى سياق قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً] الأحزاب:21 وإلى سبب نزول النص لنجد أنه قد جاء في معرض الحديث عن واحد من أهم الأحداث في حياة رسول الله r، ألا وهو غزوة الأحزاب، وبداية سياق الحديث عن غزوة الأحزاب يبدأ من قوله تعالى:

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً، إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً] الأحزاب: 10-12، وفي هذا السياق يأتي قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ] الأحزاب:21، ثم يعود ثانية إلى السيرة:

[وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً] الأحزاب:22-23. وذكر الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه في أثناء

---

1 انظر الروض الأنف (22/1).

2 انظر حدائق الأنوار ومطالع الأسرار للحضرمي (46/1).

ذكر الأسوة بالنبي r، ليذكرنا بالنبي إبراهيم والذين آمنوامعه.

إن مجيء آية الأسوة الحسنة في وسط الحديث عن موقف مهم من سيرة النبي r ليجيب عن السؤال المطروح: ما علاقة الأسوة الحسنة بالسيرة؟ بأن السيرة النبوية هي محل الأسوة بالنبي r.

وما أظن يخفى أن ما ذكره السياق القرآني في آية الأسوة من سورة الأحزاب لا يعني قصر الأسوة بالنبي r في هذا الحدث وأمثاله فحسب، فالسيرة كلها هي محل القدوة، وما ورد في هذا السياق ما هو إلا نموذج ينتقد المتخلفين عن الغزوة. قال في الخصائص الكبرى: (ومن خصائصه أن الله تعالى فرض طاعته على العالم فرضاً مطلقاً لا شرط فيه ولا إستثناء، فقال: [وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا]، وقال: [من يطع الرسول فقد أطاع الله]. وإن الله تعالى أوجب على الناس التأسي به قولاً وفعلاً مطلقاً بلا استثناء، فقال: [لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة])[1].

فالعلاقة وثيقة جداً مابين السيرة النبوية، والأسوة الحسنة كما بين السياق القرآني. والسياق كما هو معلوم عند المشتغلين بالدراسات القرآنية يقوم بدور بياني في تفسير النص القرآني وتوضيح معانيه[2].

ومما يزيد العلاقة بين الأسوة الحسنة والسيرة النبوية وضوحاً أن نستذكر أن الآية أضافت الأسوة الحسنة إلى رسول الله r، فمحل الأسوة هو النبي r. ولو أضفنا إلى ذلك أن مجال الأسوة هو سلوك صاحب الأسوة، وأننا بينا أن علم السيرة هو العلم الذي يجمع أحوال النبي r، فسندرك تماماً عدم انفكاك مفهوم الأسوة الحسنة عن سيرة المصطفى r.

المطلب الثالث: جوانب الأسوة بالنبي r:

تتعدد جوانب الأسوة بالنبي r بتعدد جوانب الإسلام؛ لأن سيرة المصطفى r ترجمة للقرآن، وحياته امتثال وتمثل لمعانيه، فكل مفردة من مفردات حياته r قد اصطبغت بمعاني الوحي، وامتزج كل تصرف من تصرفاته بها، ومن هنا أصبح قوله حجة، وفعله حجة، وسكوته حجة، وإقراره حجة r، وصارت سنته كلها مصدراً تشريعاً؛ لذلك قال تعالى: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] النحل: 44. والمقصود بالذكر سنة المصطفى r، كما ذكر عامة المفسرين، والتي هي جزء من الوحي.

1 الخصائص الكبرى (342/2).

2 قال ابن دقيق العيد: (فإن السياق طريق إلى بيان المجملات و تعيين المحتملات و تنزيل الكلام على المقصود منه)، إحكام الأحكام (83/4).

والمجتمع المسلم اليوم أحوج ما يكون إلى أن يتفاعل ومعاني الوحي، فعندما يتحول المجتمع، وتتحول الدولة المسلمة إلى هداية السماء يصبح المجتمع قادراً على إقامة العمران في الأرض. تلك الرسالة التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى: [وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ] هود:61.

ولما تعددت جوانب الإسلام بوصفه نظام حياة، قد حوى منهجاً وتشريعاً وأخلاقاً وعبادةً تعددت جوانب الأسوة بالنبي r، فهو أسوة في المنهج.. أسوة في العبادة.. أسوة في التشريع.. أسوة في الأخلاق.. أسوة في الأفعال.. أسوة في الأحوال.. وبعبارة موجزة هو أسوة في كل ما جاءنا منه عن الله U، قال الله تعالى: [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ] الحشر:7.

وسندرس في المباحث المتبقية أمثلة من جوانب الأسوة بالنبي r، في مجالات المنهج، والعبادة، والأحوال نظراً إلى سعة مجالات الأسوة به r من جهة، وكثرة النماذج في كل مجال منها، لذلك سأقتصر على هذه الجوانب فحسب - ولاسيما أن الاقتداء يتجلى بوضوح في هذه الجوانب أكثر من غيرها-، وسأنتخب منها أشياء أذكرها للتمثيل، فلا يغب ذلك عن ذهن القارئ الكريم.

هل يدخل أصحاب النبي r في "الأسوة الحسنة"؟:

موجب هذا السؤال المقارنة الانطباعية التي ترد إلى ذهن المسلم حين يتلو قول الله تعالى: [قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ] الممتحنة:4. فيرد إليه التساؤل السابق: هل يدخل أصحاب النبي r معه في "الأسوة الحسنة" الواردة في قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ]؟

كان مجتمع الصحابة في زمانه المجتمع الإسلامي الوحيد، فهم الذين تمَثَّلوا الوحي لأنه نزل عليهم، ففهموه، وهم الذين عايشوا رسول الله r، ورأوا سنته، وشربوا من معينها، وتمثلوها سلوكاً، وحوَّلوها إلى واقع؛ فقامت حضارة الإسلام على جهد ذلك الصدر الأول. هذا جيل الصحابة. فلا يقبل أبداً أن ينظر إليهم إلا نظرة النموذج الذي فهم الوحي وعمل به، الذي آمن مع النبي r، كالفريق الذي آمن مع إبراهيم u فلنا فيهم أسوةٌ حسنة.

لذلك قال النبي r: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"[1]، فهذه الخيرية إنّما هي خيريةٌ للأسوة. بل جاء التصريح بذلك في قوله r: "اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر"[2]، فوسع مفهوم الأسوة إلى أن تتجاوز شخصه وسيرته إلى نماذج أخرى بعيدة عن عصمة النبوة، جبلت فيها جرثومة الأخطاء المندمجة مع البشر، فإننا نؤمن بأن الصحابة غير معصومين فهم يخطئون، ويعصون الله سبحانه وتعالى، ولكنهم يسارعون إلى المغفرة كما قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ] الأعراف201.

هذا الفريق المبصر تحول إلى أسوة، فقوله أسوة، وفعله أسوة، وحاله أسوة، وقد أصّل القرآن لذلك، فقال تعالى في سياق آية الأسوة بالنبي r: [مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً] الأحزاب23، وفي هذا النص أمران مهمان:

أولهما: الإشارة إلى أن هؤلاء المؤمنين أسوة مع النبي r، بحكم وحدة سياق النص.

الثاني: الرد على من سيزعم أنهم بدلوا بعد النبي r ، فأكد ذلك بقوله: "تبديلاً" بذكر المصدر؛ لأنهم قائمون على رسالة النبي r، قائمون على الامتثال لأمر الله، ولذلك تكرر الثناء عليهم في القرآن الكريم بقوله تعالى: [وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] التوبة: 100، فهم بهذا النص من أهل الجنة، وليسوا أسوةً فقط.

وهو نص قرآني لا يتغير، فلا يمكن أن يكون الله -تعالى الله عن ذلك- لايدري بما سيكون من الصحابة أو من السابقين الأولين من المهاجرين، والأنصار، فلا بد من أنهم بقوا على هذا الوصف[3]. ومن أشهر السابقين من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وابن مسعود.

ومن أشهر السابقين من الأنصار سعد بن عبادة، سعد بن معاذ، وأسعد بن زرارة، وأسيد بن حضير وغيرهم[4]. هؤلاء هم السابقون الذين ذكرتهم الآية ورضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعدّ لهم جنات

---

1 رواه البخاري في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور، (2509)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، (2533).

2 رواه الترمذي عن حذيفة بن اليمان في المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر، (3662)، وعن ابن مسعود في مناقب ابن مسعود، (3805)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

3 التفسير الكبير (135/16).

4 بنيت كلامي على ما اختاره الرازي رحمه الله في تفسيره: (والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة وفي النصرة)، (134/16).

تجري تحتها الأنهار.

لذلك لابد أن نوسع مفهوم الأسوة الحسنة من خلال هذه النصوص القرآنية، لتنال المجتمع الإسلامي الأول، مجتمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

الأسوة بالنبي r من ناحية المنهج:

قبل الحديث عن صور الأسوة بالنبي r لابد من بيان أن الأمثلة التي سنطرحها تتناول حياة النبي الكريم وأصحابه رضوان الله عليهم، لأنهم الصورة الأعمق للاقتداء به والسير على هديه.

إننا نعني بالمنهج التوجه الفكري لدى الإنسان، وتصوره للحياة والأسئلةِ الوجوديةِ، وتمسكه بمبادئه التي تشكل له هوية.

- روى الشيخان[1] أن ابن عمر: أَرَادَ الْحَجَّ عَامَ نَزَلَ الْحَجَّاجُ بِابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقِيلَ له: إِنَّ الناس كَائِنٌ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ، وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ يَصُدُّوكَ. فقال: لقد كان لَكُمْ في رسول اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، أَصْنَعُ كما صَنَعَ رسول اللَّهِ r. في تلك الحادثة كان الحجاج قد أتى بمنجنيق، وأحاط بمكة المكرمة ودمر جزءاً منها، وما كان من ابن عمر في ذلك الوقت إلا أن احتج بفعل النبي r يوم الحديبية، حين صده المشركون عن الوصول إلى البيت الحرام، فكانت السيرة النبوية مرجعيته فيما ينزل به، ومنهج حياته.
- روى الإمام أحمد في مسنده[2] جاء عثمان بن مظعون إلى النبي r يريد التبتل؛ يريد أن يعتزل النساء، ولا يتزوج، ويريح نفسه من آلة الزواج، فقال له النبي: "يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا أفما لك فيّ أسوة؟، فوالله إني أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده".

ظهر هنا الاقتفاء بالمنهج، والرؤية، والتصور، فالإسلام يرفض الرهبانية، فالرهبانية منهج آخر، والنبي ما بعث بالرهبانية بل بعث بالحنفية السمحة، لذلك رفض من عثمان هذا الأمر.

- وجاء سعد بن هشام إلى عائشة رضي الله عنها فقال: يا أم المؤمنين إني أريد أن أتبتل فقالت: لا تفعل، ألم تقرأ : [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ] قد تزوج النبي r وولد له[3].

---

1 صحيح البخاري في الحج، باب طواف القارن، (1559)، صحيح مسلم في الحج، باب بيان جواز التحلل بالإحصار، (1230).
2 المسند (226/6)، وانظر السيرة الحلبية (290/2).
3 المسند (91/6).

نجد أن الصحابة قد تفاعلوا مع الأسوة بالنبي r في منهجه، فها هو ابن عمر يتخذ من أحداث حياة المصطفى r منهجاً يرجع إليه فيما يواجهه من نوازل. وها هو عثمان بن مظعون يستجيب للمنهج النبوي حين بيَّن له النبي r أن لا رهبانية في الإسلام. وها هي السيدة عائشة رضي الله عنها تتفاعل أيضاً مع المنهج، وتذكِّر سعد بن هشام بقوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ] فتجلت أسوةً في المنهج، وأسوةً في التصور الإسلامي الذي يمنح الإسلام خاصية تجعل منه نظاماً مستقلاً لا شرقياً، ولا غربياً. بل هو الإسلام بكل أبعاده، بكل محتوياته، بكل مكنوزه المتعدد الجوانب، بكل ما يستجمعه من عناصر القوة، والخصوصية التي أصبح بها ديناً مستقلاً، وأصبح بها آخر الأديان. بل أخذ صورته النهائية ليس في اكتمال تشريعه فحسب، وإنما باكتمال منهجه أيضاً، فأحكم إلى درجة أن ييأس أعداؤه منه، قال تعالى: [الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ من دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً] المائدة:3، لقد اكتمل الدين، فلا يمكن أن يقهر بتشريعاته أو أحكامه أو بفكره، وسيبقى خالداً إلى يوم القيامة.

وعند الحديث عن كمال الدين بمنظوماته التي ذكرت لابد من التأكيد أن المساس بأي جانب من جوانب الدين، أوالنظر إلى الإسلام على أنه مجرد حالة روحية يمثل عدواناً على هوية الأمة الكاملة، وليس مجرد عدوان على الدين؛ لأن الإسلام يمثل لهذا الأمة المكنوز الحضاري الثقيل؛ الذي صبغها بلونٍ خاص، فلا يمكن أن تتنازل الأمة عن ذلك، والغرب يتعاملون معنا على هذا الأساس.

حتى النصارى الذين يحيون بسلام في البلاد الإسلامية ينظر الغرب إليهم على أنهم امتداد حضاري للإسلام لأن حضارتهم وثقافتهم الإسلام.

الأسوة بالنبي r من ناحية العبادة:

- من ذلك ما رواه الإمام أحمد[1] عن ابن عباس t : أن عمر بن الخطاب t أكب على الركن - الحجر الأسود - فقال : إني لأعلم أنك حجر، ولو لم أرَ حبيبي r قبلك، واستلمك ما استلمتك، ولا قبلتك ثم قال عمر: [ولَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ]. فعمر رضي الله عنه قبل الحجر الأسود أسوة برسول الله r .
- ومن ذلك أيضاً حديث أبي قتادة الأنصاري، والحديث طويل رواه مسلم[2]، وفيه: قال أبو قَتَادَةَ: فَبَيْنَمَا رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَسِيرُ حتى إبهار اللَّيْلُ وأنا إلى جَنْبِهِ، قال: فَنَعَسَ

1 المسند (21/1)، وأصله في البخاري في الحج، باب الرمل في الحج والعمرة، (1528)، وانظر السيرة الحلبية (257/1).

2 صحيح مسلم في صلاة المسافرين، باب قضاء الصلاة الفائتة (681). وانظر دلائل النبوة (283/4)، السيرة الحلبية (113/3).

رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فَمَالَ عن رَاحلَته، فَأَتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ من غَيْرِ أَنْ أُوقظَهُ حتى اعْتَدَلَ على رَاحلَته، .... فقال: "من هذا؟" قلت: أبو قَتَادَةَ. قال: "مَتَى كان هذا مَسيرَكَ منِّي؟" قلت: ما زَالَ هذا مَسيري مُنْذُ اللَّيْلَة. قال: "حَفظَكَ الله بمَا حَفظْتَ به نَبيَّهُ"... ثُمَّ قال: "احْفَظُوا علَيْنَا صَلَاتَنَا"، فَكَانَ أَوَّلَ من اسْتَيْقَظَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وَالشَّمْسُ في ظَهْره. قال: فَقُمْنَا فَزعينَ ثُمَّ قال: "ارْكَبُوا" فَرَكبْنَا فَسرْنَا حتى إذا ارْتَفَعَتْ الشَّمْسُ نَزَلَ، ثُمَّ دَعَا بميضَأَة كانت مَعي فيها شَيْءٌ من مَاء، قال فَتَوَضَّأَ منها وُضُوءًا دُونَ وُضُوء، قال وَبَقيَ فيها شَيْءٌ من مَاء ثُمَّ قال لأَبي قَتَادَةَ: "احْفَظْ علَيْنَا ميضَأَتَكَ فَسَيَكُونُ لها نَبَأٌ"، ثُمَّ أَذَّنَ بلَالٌ بالصَّلَاة فَصَلَّى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم رَكْعَتَيْن، ثُمَّ صلى الْغَدَاةَ فَصَنَعَ كما كان يَصْنَعُ كُلَّ يَوْم. قال: وَرَكبَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وَرَكبْنَا معه، قال: فَجَعَلَ بَعْضُنَا يَهْمسُ إلى بَعْض: ما كَفَّارَةُ ما صَنَعْنَا بتَفْريطنَا في صَلَاتنَا؟ ثُمَّ قال: "أَمَا لَكُمْ فيَّ أُسْوَةٌ؟!" ثُمَّ قال: "أَمَا إنه ليس في النَّوْم تَفْريطٌ، إنما التَّفْريطُ على من لم يُصَلِّ الصَّلَاةَ حتى يَجيءَ وَقْتُ الصَّلَاة الْأُخْرَى".

هذه أسوة في العبادة، فالنبي r يؤصل لذلك بقوله: "أَمَا لَكُمْ فيَّ أُسْوَةٌ؟!" والصحابة قد تأسوا به، وجعلوا من عباداته محط اقتداء، واقتفاء.

- وقد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على أن يلقنوا التابعين الأسوة بالنبي r في عباداته، فمن ذلك:
- ما رواه الشيخان[1] عن سعيد بن يسار: أنه قال كنت أسير مع عبد الله بن عمر بطريق مكة فقال سعيد بن يسار: فلما خشيت الصبح نزلت فأوترت ثم لحقته. فقال عبد الله بن عمر: أين كنت؟! فقلت: خشيت الصبح فنزلت فأوترت. فقال عبد الله: أليس لك في رسول الله أسوة حسنة فقلت: بلى، فقال: فإن رسول r كان يوتر على البعير.

إذاً بيَّن النبيr لهم" أما لكم فيّ أسوة " في العبادة. ثم جاء عبد الله بن عمر y ليبين أن النبي r أسوة في العبادة.

- ومن ذلك ما روى البخاري[2] عن سعيد بن جبير أن ابن عباس قال: في الحرام يُكفر عنه، وقال

---

1 صحيح البخاري في الوتر، باب الوتر على الدابة (954)، صحيح مسلم في صلاة المسافرين، باب جواز صلاة النافلة على الدابة، (700)، وانظر الشمائل الشريفة (374/1).

2 صحيح البخاري في التفسير، باب يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك، (4627)، وانظر أيضاً زاد المعاد لابن القيم (300/5).

ابن عباس : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.

هذه مسألة فقهية، وليس من منهجي في الروايات التي أذكرها أن أركز على القضايا الفقهية، بل أسلط الضوء على وجه التأسي في المثال فحسب، ولن أتحرى فيه جانب الفقه، لأن الفقه حالة تفسيرية معقدة، تتجاوز مجرد مناهج المفسرين، وتحكمها قواعد أصول الفقه، فلا تُأخذ الفتوى مما في هذه النصوص بمفردها، إنما تأخذ الفتوى بالعودة إلى المختصين من أهل الذكر، فقد قال تعالى [فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ] النحل43، وأهل الذكر هنا المجتهدون من أهل الفقه. وهذا معلوم عند العلماء ما أظنني أحتاج إلى تدليل عليه ولا تعليل. فعملي هنا أن أذكر الرواية الموافقة للأسوة وأوجِّه دلالتها على هذا المعنى. فلست أتكلم أصالة عن الوتر على البعير، ولا عن قضية الحلف بالحرام ما حكمهما!.

الأسوة بالنبي r من ناحية الأحوال:

ونقصد بالأحوال السلوك العام للمرء، وهذا أكثر جوانب الأسوة مثالاً، فقد أثبت القرآن الكريم لخلق النبي r مكانة علية، فقال تعالى: [وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ] القلم:4، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن[1]. فإذاً نحن أمام خلق يفسر أخلاق القرآن كلها، ومن أعسر العسير الإحاطة بذلك؛ لذلك سأقتصر على ذكر مثالين فحسب. والأصل في هذا الباب قوله تعالى:[وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ] الحشر:7.

- من ذلك ما أورده الهيثمي في زوائد مسند الحارث[2] عن أشعث بن سليم عن عمته عن عمها: قال بينما أنا أمشي في سكة من سكك المدينة إذا ناداني إنسان من خلفي ارفع: إزارك فإنه أبقى وأنقى، قال: فنظرت فإذا هو رسول الله r ، قلت يا رسول الله: هو بردة ملحاء – يعني عباءة مخططة - قال: أوما لك فيّ أسوة؟! قال: فنظرت، وإذا إزاره إلى أسفل الساق.

فالنبي r يبين له أنه أسوة له حتى في اللباس.

- ومن ذلك ما روت عائشة من حسن معاشرته لأهله أنه r : " كان يُقبل، وهو صائم ثم قالت: ولكم فيه أسوة حسنة"[3].

---

1 رواه أحمد في مسنده (91/6)، وانظر دلائل النبوة (309/1).

2 بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (608/2).

3 رواه أحمد في المسند (192/6)، أصله عند مسلم في الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة، (1116).

وأعود ثانية إلى التأكيد أنني لا أتناول هنا الناحية الفقهية، ما حكم القبلة للصائم؟! هذا يــدرس فــي الفقه، وإنما أتكلم عن قضية أن السيدة عائشة تحدثت عن أخلاق رسول الله، وحسن عشرته لأهــل بيته، ثم استحضرت في هذا المعنى مضمون آية الأسوة الحسنة بالنبي r .

عرضت ما يتعلق بأحداث حياة النبي r وحياة الصحابة، وكيف فهموا ما نقل عنه r ، ولست أشك في أن ما ذكرت لا يوفي قدر نبينا r ، ولا يستقصي جوانب الأسوة فيه، ولكنني أظن أني اســتوفيت مــا يتطلبه مقام بيان جوانب الأسوة به بياناً أولياً، وتفصيل ذلك في كتب السيرة والشمائل وبطون أمهات كتب الروايات الحديثية، وأدعو طالب الاستزادة إلى العودة إليها.

وهكذا تمثل السيرة المطهرة للأمة جمعاء أساس الأسوة؛ لأن شخص الرسول الكريم r يتميز بوصف زائد على البشر، وهو أنه يوحى إليه، قال الله تعالى: [قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُــمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ] فصلت:6، فمرجعية السيرة للأسوة الحسنة إنّما هي بوصفها تعبيراً عن الوحي، وبوصف النبي r يوحى إليه.

نتائج البحث:

1- إن الجمهور الذي تخاطبه التربية الإسلامية واسع جداً حسبما تشير الإحصائية الرسمية.

2- تتجلى الحاجة إلى الأسوة الحسنة في جملة أشياء، أهمها وجود فطرة حب الكمال في الإنسان، وحاجة البشر إلى من يعلمهم السلوك الأمثل.

3- المراد بالأسوة الحسنة التي ذكرها القرآن هم أتباع الوحي من الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين، ومحل الاقتداء هو سلوكهم القائم أساساً على الوحي، فيدخل في مفهوم الأسوة الحــسنة فــي الإسلام المجتمع الإسلامي الأول، مجتمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

4- لاتكون الأسوة أهلاً للاقتداء إلا بجملة أوصاف تمنحها تلك الرتبة، أهمها اتصالها بالوحي سواء كانت نبياً مرسلاً أو كانت من أتباع الرسل، والذين آمنوا بهم، وأيضاً أن تصدر عنها مواقــف ترفعها إلى درجة الأسوة.

5- يتشابه مفهوما القدوة الحسنة والمرجعية من ناحية كون سلوك الاثنين محل قدوة، ويختلفــان في كون الشخصية المرجعية تزيد على شخصية الأسوة في عودة الناس إليها في كل ما ينــزل بها، بخلاف شخصية الأسوة التي لا يشترط أن تحكِّمها الأمة في كل قضاياها. ويمكن القول إن كل شخصية مرجعية هي أسوة، ولا يشترط في الأسوة أن تكون شخصية مرجعية.

6- المخاطب على وجه الخصوص بالأسوة الحسنة هم من ذكرتهم الآية بوصف: [مَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً]، على أنه لايمتنع أن يكون النص عاماً يخاطب المسلمين جميعاً، ويكون تخصيص من ذكرتهم الآية بالذكر لبيان الفريق الذي يستجيب لداعي الأسوة.

7- تتمثل حقيقة الاقتداء بتفعيل كل من الإيمان والإسلام، بعيداً عن الدعوى العرية عن الدليل.

8- العلاقة بين الأسوة الحسنة والسيرة النبوية وثيقة جداً؛ لأن الآية أضافت الأسوة الحسنة إلى رسول الله r، ولأن علم السيرة هو العلم الذي يجمع أحوال النبي r.

9- تتعدد جوانب الأسوة بالنبي r بتعدد جوانب الإسلام؛ لأن سيرة المصطفى r ترجمة للقرآن، وحياته امتثال وتمثل لمعانيه.

10- إن دراسة السيرة النبوية تشكل للمسلمين أساس التربية بالنموذج.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

ابن الجوزي، عبد الرحمن: زاد المسير في علم التفسير: المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1404.
ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، 1984م، دط.

ابن كثير، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم: بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1969

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت: دار صادر، د. ت.
الآلوسي، محمود: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط: ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1411هـ .

البخاري، محمد بن إسماعيل: الصحيح البخاري، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط 3، 1407هـ
البغوي، الحسين بن مسعود: معالم التنزيل: تح محمد عبد الله النمر وزملاؤه، ط4، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1417 هـ.
البيضاوي، عبد الله بن عمر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت.

البيهقي، أحمد بن الحسين: دلائل النبوة، مؤسسة البراق، السعودية، دت.

الترمذي، محمد بن عيسى: السنن، تح أحمد محمد شاكر وزملاؤه، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
الحضرمي، محمد بن عمر: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، تح محمد غسان نصوح عزقول، دار الحاوي، بيروت، 1998م، ط1.

الحلبي، علي بن برهان الدين: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة، بيروت، 1400.

الرازي، فخر الدين: مفاتيح الغيب: ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1422هـ.

الرشيد، عماد الدين: المرجعية دراسة في المفهوم القرآني، دار نحو القمة، سورية، 2005، ط1.

الزرعي، ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، تح شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الكويت، 1407 - 1986، ط14.

الزمخشري، محمود: الكشاف، تح عبد الرزاق المهدي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1417هـ.

السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن: تح محمد أبو الفضل إبراهيم، إيران، منشورات الشريف الرضي، د. ت.

السيوطي، جلال الدين: الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ - 1985م.

السيوطي، جلال الدين: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، 1993.

السيوطي، جلال الدين: الشمائل الشريفة، تح حسن بن عبيد باحبيشي دار طائر العلم للنشر والتوزيع، دت.

الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، دت.

الشيباني، أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة، مصر، دت.

الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ضبط وتوثيق صدقي جميل العطار، بيروت، دار الفكر، 1995

العسقلاني، ابن حجر: تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، 1404- 1984، ط1.

العمادي، أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: القاهرة، دار إحياء التراث العربي، د.ت

القرطبي، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن: دار الريان، القاهرة، دت.

القشيري، ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، دت.

الكلبي، ابن جزيء: التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، لبنان، 1403هـ

المجموعة الإحصائية للعام 2006، الصادرة عن المكتب المركزي للإحصاء، رئاسة مجلس الوزراء في سورية

المعافري، ابن هشام: السيرة النبوية، تح طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1411، ط1.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الهيثمي، نور الدين: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، تح د. حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، 1413 - 1992، ط1.

ثانياً: المصادر غير العربية:

Human Development Report 2007/2008 First Published, 2007, Palgrave Macmillan, New York*.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2009/1/8.